السنن الإلهية

في

الأنفس والآفاق

بقلم

علي القاضي



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

ذي الحجة ١٤٢٧ هـ - يناير ٢٠٠٧ م

المسلمون في العصر الحديث يمثلون ٢٧٪ من سكان العالم ومع ذلك فإنهم غثاء كغثاء السيل ، ويصدق عليهم قول الشاعر :

ويقضي الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

ترى ما السبب في ذلك ؟ إن السبب يكمن في عدم وجود وسائل الفهم الصحيح للسنن الإلهية في الأنفس والآفاق وهي التي تحكم الحركة التاريخية والاجتماعية والنفسية وسنن سقوط الأمم ونهوضها التي ذكرها القرآن الكريم وغالبا ما يحدث هذا في أعقاب القصص القرآني .

وقد أكد الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى على أن السنن سائرة على الناس جميعا على امتداد الزمان والمكان وأن اكتشافها والتعامل معها أمر لا بد منه للشهود الحضاري الذي يظهر في عمارة الأرض والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني الشهادة والقيام للناس جميعا لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣)

واكتشاف السنن والعمل بها هو الذي مكن العالم الغربي من التقدم المادي والتحكم في العالم كله ، وغفلة المسلمين عنها كانت السبب في الانحطاط والتخلف في العالم الإسلامي إلى درجة أنهم أصبحوا مُسَخَّرِين بدلا من أن يصبحوا مسَخِّرين .

وقد طلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين أن لا يطيعوا الذين كفروا لأن النتيجة ستكون وبالا عليهم في الدنيا والآخرة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (آل عمران : ١٤٩-١٥٠) .

وقد وردت كلمة السنن في القرآن الكريم في أكثر من عشرين آية ومنها :

- ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنفال:٣٨)

- ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (الإسراء:٧٧)

- ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأحزاب:٣٨)

- ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النساء:٢٦-٢٨)

وقد طلب الله سبحانه وتعالى من المسلمين أن يسيروا في الأرض وأن يتعرفوا على سنن الله تعالى وما حدث لمن خالفها فقال : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (آل عمران:١٣٧) ، ثم قال : ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (آل عمران:١٣٨) ، ثم يبين سبب هذا الابتلاء فقال : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (آل عمران:١٤١-١٤٢) .

ومن أمثلة السنن الواردة في القرآن الكريم سنة التدرج وسنة التداول الحضاري وسنة المدافعة وسنة التسخير وسنة التغيير .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

علي القاضي

سنة الله تعالى في سعادة الأمم وشقائها :

الله سبحانه وتعالى حين خلق كل شيء في الكون جعل لكل مخلوق نظامه الذي به يبقى ويستمر ولم يتميز إلا الإنسان ، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى له الرسل لهدايته إلى الطريق المستقيم وجعل له عقلا يميز به الخير من الشر والصواب من الخطأ ، يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ (الحج:١٨) .

ولما جاء ذكر الإنسان قال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب:٧٢) ، ويقول ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ (الطلاق:٨-١١) .

سنن الله سبحانه وتعالى نوعان : نوع للدنيا والنجاح فيها ونوع للآخرة والنجاح فيها

سنن الدنيا : تظهر في حسن الإنتاج وحب الحياة وحب التمتع بها والأمن والاستقرار فيها ، وهذه الثمرة الدنيوية يصل إليها من أحيا العمل على أساس

النظام الذي وضعه الخالق سبحانه وتعالى سواء أكان مؤمن أو غير مؤمنا ، وإذا انحرف المؤمن عن سنن الله تعالى خسر وضعف شأنه ، فالأرض تعطي ثمارها لمن يحسن فلاحتها واستغلالها ، والعلم يحصله كل من يجيد فهمه والعمل به سواء أكان مؤمنا أم غير مؤمن ، وكذلك الزراعة والصناعة والتجارة والحرب وغير ذلك ، وهكذا يصل إلى الغاية كل من يحسن العلم والعمل والسير في الطريق الصحيح ، ومن الملاحظ أن الدنيا عرض زائل ، والله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يأخذ بالأسباب مهما كانت عقيدته ، ولكنه لا يعطي الآخرة إلا من يسير على منهجه .

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ولكنها كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يعملون ، فهم قد كفروا بالله خالقهم ورازقهم ولم يستغلوا نعم الله تعالى التي أغدقها عليهم في الأرض وفي المعاملات وانحرفوا عن سنن الله سبحانه وتعالى وتعاليمها في مزاولتها للحياة فحول الله تعالى أمنها خوفا واستقرارها فوضى .

والكفر بالله تعالى غير الكفر بالنعمة ، فالمؤمن قد لا يحسن العمل في الأرض طبقا لمنهج الله تعالى فلا يحس بالراحة ولا بالأمن ، ومن لا يؤمن بالله قد يحسن استغلال الأرض فيفوز بخيراتها .

ومن سنن العمل للآخرة : الالتزام بمنهج الله سبحانه وتعالى ، فالإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها (لا إله إلا الله) وأدناها (إماطة الأذى عن الطريق) ، وإذا حقق المسلمون كل ذلك أصبحوا خير أمة أخرجت للناس ، يقول الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:١١٠) ، ويصف القرآن الكريم المؤمنين والمؤمنات بالوصف الذي يليق بهم فيقول : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ

يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (التوبة:٧١) .

ويقول رسول الله ﷺ :(كيف بكم إذا طغى نساؤكم وفجر شبابكم وتركتم جهادكم ؟، قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟، قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون – كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ ، قال : نعم وأشد منه سيكون – كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا ؟، قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ ، قال : نعم وأشد منه سيكون – كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ ، قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ قال : نعم وأشد منه سيكون ، يقول الله عز وجل : لأفتننهم فتنة تدع الحليم فيهم حيرانا) البخاري .

وقد بين القرآن الكريم موقف بني إسرائيل الذين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (المائدة:٧٨-٨١) .

الـــربـــا :

ومن الأشياء التي حرمها الله سبحانه وتعالى الربا الذي يجعل المجتمع في ضنك ويجعل الصلة بين أفراد المجتمع تقوم على البغض والكراهية والحرب ، بعد ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ

ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ (البقرة:٢٧٥-٢٧٦) ، ثم يقول الله تعالى بعد ذلك ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ (البقرة:٢٧٨-٢٧٩) ، وقد بين الله سبحانه وتعالى الفرق بين من ينفق في سبيل الله وبين من يتعامل بالربا فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ (البقرة:٢٧٤) .

اختبار الله تعالى لعباده المؤمنين :

الله سبحانه وتعالى يختبر عباده المؤمنين ويوضح لهم أن نجاحهم في هذا الاختبار يجعلهم يفوزون برضوان الله تعالى عليهم في الدنيا والآخرة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (البقرة:١٥٥-١٥٧) ويبين أن المؤمنين يستعينون بالصبر

والصلاة على الابتلاء فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٣) .

ومن أسباب ابتلاء الله سبحانه وتعالى للمؤمنين تمييز الطيب من الخبيث ، يقول الله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران:١٧٩) ، ويقول : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٦) .

ويبين القرآن الكريم للذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله وأن ذلك ليس فيه الخير لهم بل فيه الشر لهم ، وعليهم أن يعلموا أن لله ميراث السموات والأرض وأنه الله عليم بكل تصرفاتهم الظاهرة والباطنة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (آل عمران:١٨٠) .

سنن الله تعالى في الأمم السابقة :

لقد بين الله سبحانه وتعالى في الأمم السابقة على الإسلام حتى يستفيد منها أولوا العقول السليمة فيتجنبوا أخطاء الأمم السابقة والإصرار على كفرهم وعلى طغيانهم وعلى حرب رسله بكل ما أوتوا من قوة ، ثم يبين لهم كيف كان جزاؤهم وهلاكهم وذلك في الحياة الدنيا إلى جانب العذاب الأليم في الآخرة .

قوم نوح عليه السلام : نوح عليه السلام أطول الأنبياء عمرا وقد لبث يدعو قومه إلى الإيمان بالله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاما فكذبوه وآذوه ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون لأنفسهم ولرسولهم ، يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الأعراف:٥٩) ، ترى بماذا ردوا عليه ؟ ، قالوا له : إنا لنراك في ضلال مبين ، فقال لهم : يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون وأنا لا أطلب منكم أجرا على هذه الدعوة إن أجري إلا على الله ، فقالوا له : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، فقال نوح لخالقه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (نوح:٥-١٢) ولكنهم لم يستجيبوا له فقال لخالقه سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (نوح:٢١-٢٤) ، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يصنع الفلك ، وأخذ نوح عليه السلام يصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه لأنه يصنع الفلك في أرض صحراء ، فماذا يصنع بها ؟ ، فقال لقومه : ﴿ قَالَ إِن

تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (هود:٣٨) ، وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح أن يأخذ فيها من كل زوجين اثنين وأن يركب السفينة كل من آمن من أهله وقال له : فإذا استويت أنت ومن معك في الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ، وترد باقي القصة في سورة هود في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ (هود:٤٢-٤٨) . ومن الملاحظ أن قصة نوح عليه السلام ذكرت في القرآن عدة مرات إلى جانب سورة تسمى بسورة نوح .

قوم إبراهيم عليه السلام : يتميز إبراهيم عليه السلام بأنه أواه حليم وقد ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن ، فقال له : إني جاعلك للناس إماما ، وقد ابتلي عدة ابتلاءات ، ومن هذه الابتلاءات موقفه من أبيه وموقف أبيه منه فقد قال لأبيه ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ (مريم:٤٣-٤٥) ، فكان رد أبيه عليه في غاية القسوة إذ قال له ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ (مريم:٤٦) ، فقال له إبراهيم عليه السلام في حب له وخوف عليه من غضب الخالق سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ ﴾ (مريم:٤٧) ، ثم عقب على ذلك بقوله ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ (مريم:٤٨) .

وقد أكرم الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام على هذا الموقف الإيماني فبعد أن اعتزل أباه ومن معه وما يعبدون من دون الله وهب الله له إسحاق ويعقوب ، وكل منهم جعله نبيا ، ووهب لهم من رحمته وجعل لهم لسان صدق عليا ، وكان لقومه موقف منه إذ أنهم لم يرضوا بدعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ثم إنه حطم آلهتهم ، وقال لهم ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الصافات:٩٥-٩٦) ، فقالوا : ﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ (الصافات:٩٧) ، وقال الله سبحانه وتعالى للنار : ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (الأنبياء:٦٩-٧٠) .

وقد أمره الله تعالى أن يذهب بزوجته وابنه إلى صحراء جرداء وتركهم فيها ولم يكن فيها طعام ولا شراب ولا سكن ولا ناس ، وحين أراد أن يتركهم قالت له زوجه : أتتركنا هاهنا ؟ ، فسكت ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ ، فقال : نعم ،

فقالت : إذا لا يضيعنا ، وقد أنعم الله عليهم بماء زمزم ثم بأناس سكنوا معهم في مكة المكرمة حينما رأوا الطير تحوم في الفضاء فعرفوا أن الماء موجود ومن الممكن أن يسكنوا فيها .

ثم رأى إبراهيم في المنام أن يذبح ابنه ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (الصافات:١٠٢) ، وتدخل إبليس عليه لعنة الله وأسر إلى إبراهيم وإلى إسماعيل وإلى أمه هاجر كيف يحدث هذا ؟ إن هذا غير معقول ولا مقبول ، فرجمه كل منهم بسبع حصيات لا زالت موجودة على امتداد الزمان والمكان في فترة الحج ، فلما أسلما وتله للجبين وهم بذبحه ناداه خالقه ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٥) ، وفداه الله تعالى بذبح عيظم وجعل الأضحية موجودة في عيد الأضحى للقادرين ولحجاج على امتداد الزمان والمكان ، ويقول الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ (الصافات:١١٠-١١٣) . وقد عهد الله سبحانه وتعالى إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا بيت الله الحرام للطائفين والقائمين والركع السجود وقد تم ذلك .

وكان لإبراهيم عليه السلام موقف مع الملك النمرود ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ

ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (البقرة:٢٥٨) .

البشرى : لقد جاءت رسل الله تعالى بالبشرى لإبراهيم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ (هود:٧٣-٧٧) ، وإبراهيم عليه السلام قال لهم ﴿ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الحجر:٥٤-٦٠) ، وقال رسل الله تعالى لإبراهيم ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (العنكبوت:٣١-٣٢) .

وقد سمي إبراهيم عليه السلام بأبي الأنبياء وذكره القرآن الكريم في كثير من الآيات الكريمة ، إلى جانب أن هناك سورة تسمى بسورة إبراهيم ، وسمي بخليل الرحمن .

قوم لوط عليه السلام : لوط عليه السلام رسول من الصالحين وقد أتاه الله تعالى حكما وعلما ونجاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ، لقد أنكر الفاحشة التي كانوا يؤتونها ، وقال لقومه : أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ألا تتقون الله إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ، ثم قال لهم مرة أخرى : أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم من ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ، وقال لهم : هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ، فقالوا له : ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد .

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى ملائكة إلى لوط ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (العنكبوت:٣٣-٣٤) فما كان جواب قومه ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الأعراف:٨٢) فقال الملائكة : يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم وإن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟ ، فلما جاء أمر الله تعالى جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود ، ولقد ترك الله سبحانه وتعالى منها آية بينة لقوم يعقلون .

قوم هود عليه السلام . هود عليه السلام رسول الله إلى قوم عاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربهم سوط عذاب ، يقول الله تعالى : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (الأعراف:٦٥-٧٠) ، وقال له قومه : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (هود:٥٤) ، وقال لهم هود عليه السلام ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾ (الشعراء:١٢٨-١٣١) ، ودار حوار آخر بينهم ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأحقاف:٢٢-٢٣) ، ويقول الله تعالى في قوم هود : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ

نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (فصلت:١٥-١٦) .

قوم صالح عليه السلام : أرسل الله سبحانه وتعالى صالحاً عليه السلام إلى قوم ثمود وقال لهم : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، لقد جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا ، وقال لهم أيضا : إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، ثم قال لهم : أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فقالوا له : اطيرنا بك وبمن معك ، قال : طائركم معكم بل أنتم قوم تفتنون ، فقالوا له : يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، ما أنت إلا بشر مثلنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، فقال لهم : قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ، وقال لهم : لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، فما كان منهم إلا أن عقروا الناقة وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين المرسلين ، وكانت النتيجة أن أخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ذلك لأنهم كفروا بربهم وكذبوا نبيهم ولم يستجيبوا لدعوته مع أنه منهم يعرفون صدقه ويعلمون أنه يخاف عليهم ولم يطلب منهم أجرا إن أجره إلا على الله ، وهذه نهاية القوم الظالمين .

أهل مدين : أرسل الله سبحانه وتعالى شعيبا إلى قومه في أهل مدين وأخذ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولا تنقضوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، فقال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو

لتعودن في ملتنا ، فكان رد المؤمنين : قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتنا بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها ، وقالوا لربهم : ربنا افتح بيننا وبين قومن بالحق وأنت خير الفاتحين ، فقال الذين استمروا على كفرهم : يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ، فقال لهم : يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله ؟

فماذا كانت نهاية المكذبين لشعيب عليه السلام ؟ لقد أخذتهم الرجفة في ديارهم جاثمين وهكذا نرى أن الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين في الدنيا والآخرة ، وجاءت في سور القرآن سورة المطففين وفي آخر الآيات الكريمة التي تبين نهاية المؤمنين ونهاية الكافرين يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (المطففين:٢٩-٣٦) .

يونس عليه السلام : من ذرية إبراهيم عليه السلام وكان من المرسلين ولكنه ركب سفينة كانت مملوءة بالناس أكثر من حمولتها فأخذوا بالأسهم من يستمر في السفينة ومن يلقى في البحر حتى لا تغرق ، فالتقمه الحوت وهو مليم ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذه لأنه كان من المسبحين ، ولو لم يكن من المسبحين وهو في بطن الحوت للبث فيه إلى يوم البعث ، وقد نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم ، وقد انبت الله سبحانه وتعالى عليه شجرة من يقطين وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون فأمنوا فمتعهم الله في الدنيا إلى حين ، وفي الآخرة جزاؤهم عند ربهم جنة النعيم .

موسى عليه السلام : كليم الله تعالى ومن أولي العزم من الرسل وقد أوحى الله تعالى إلى أمه أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، وقد تم كل ذلك وتربى في بيت فرعون حتى كبر وتزوج من ابنة شعيب وخرج مسافرا مع أهله فرأى من جانب الطور نارا ؛ فقال لأهله : امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما آتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة : أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، قال الله له : يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ، أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين .

وقال له : اذهب إلى فرعون إنه طغى ، قال : رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري ، فقال الله تعالى : قد أوتيت سؤلك يا موسى اذهب أنت وأخوك إلى فرعون إنه طغى ، قالا : ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، فقال الله تعالى : لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى .

قال فرعون : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ، فجاء فرعون بالسحرة في يوم الزينة الذي اتفق عليه ، فقالوا له : إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ، قال : ألقوا ، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم ، فألقى موسى عصاه فإذا هي تأكل كل ما كان مع السحرة ، وهنا ألقي السحرة ساجدين وقالوا : آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ،

فهددهم فرعون بقوله : آمنتم له قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لأقطعن أيدكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ، فقال له السحرة : افعل ما تشاء إن معنا ربنا فلا نخاف منك أبدا ، وقال موسى لخالقه سبحانه وتعالى : ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا إنهم يضلون عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، فقال الله تعالى : قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون .

وجاوز بنو إسرائيل البحر الأحمر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، وبعد أن وصل موسى ومن معه بر الأمان عاد البحر إلى ما كان عليه قبل أن يضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه فانفلق إلى نصفين ، وسار موسى ومن معه ونجوا من البحر ومن فرعون ومن معه من جنوده ، وهنا أدرك فرعون ومن معه الغرق فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين وأنا من المسلمين ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يقبل توبته لأن ذلك تم بعد فوات الأوان ونجاه ببدنه ليكون آية للناس جميعا على امتداد الزمان والمكان .

هامان : يعتبر هامان رمز لأعوان الاستبداد والإفساد في الأرض ، لقد كان وزيرا لفرعون وساعده الأيمن . قال فرعون : يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين وابن لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإنني لأظنه من الكاذبين ، وقد أيد فرعون في تكذيب موسى وكان مصيره مع فرعون ، يقول الله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝ ﴾ (القصص:٥-٦) .

قارون : يعتبر قارون رمزا من رموز المفسدين في الأرض أولئك الذين يطغيهم المال الوفير فينسون حق الآخرين مما هم مستخلفون فيه . وقارون من قوم موسى ولكنه بغى عليهم ، وقد أعطاه الله سبحانه وتعالى من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، فما بالنا بالمال الموجود في خزائنه الوفيرة ، لقد قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا يبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، فكان رده على ذلك أن قال : إنما أوتيته على علم عندي – ترى ألم يعلم بأن الله تعالى قد أهلك من قبل من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ؟- وخرج على قومه في زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم .

ولكن الذين أوتوا العلم قالوا : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون . فماذا كانت النتيجة ؟ لقد خسف الله به وبداره الأرض وضاع كل شيء ولم يجد له فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وهنا تنبه الذين فتنوا به وقالوا : ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (القصص:٨٢) ، ثم عقب الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص:٨٣) .

تجربة موسى عليه السلام : من سنن الله سبحانه وتعالى أن يؤمن الإنسان بأن كل ما يأتي به الله خير للإنسان حتى وإن كان الإنسان لا يهدف لذلك وأن الإنسان مهما كان عنده من علم فإنه لا يعلم كل شيء لأن علمه محدود وعلم الله سبحانه وتعالى لا حدود له .

قام موسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل ، فسُئِل : أي الناس أعلم ؟ ، فقال : أنا ، فغضب الله عليه إذ أنه لم يرد العلم إلى الله سبحانه وتعالى ، فأوحى الله إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يا رب فكيف لي به ؟ ، قال : تأخذ معك حوتا فتحمله في مكتل فإذا فقدت الحوت فهو في هذا المكان . ففعل موسى ذلك ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا صخرة ووضعا رؤسهما عليها فناما ، واضطرب الحوت وسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا ، فلما استيقظا نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا وتعبا ، فقال له فتاه : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة بالأمس فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ طريقه في البحر اتخاذا للآثار ، فقال موسى : ذلك ما كنا نبغي ونطلب ، هذا طلبنا فارتدا على آثارهما قاصين الأثر متتبعين سيرهما حتى إذا أتيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجى بثوبه ؛ فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وعيك السلام ، فقال : أنا موسى ، قال له : موسى نبي بني إسرائيل ، قال موسى : نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ، قال له : إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على شيء يخالف ظاهر شريعتك ، فقال موسى : ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ، قال الخضر له : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء وعن سره حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم عليها معهم ، فلما ركبا في السفينة فوجئ موسى بالخضر يقلع لوحا من السفينة ، فقال له موسى : ما هذا قوم حملونا بغير أجر تعمد إلى سفينتهم فتخرقها لتغرق أهلها قد جئت جرما عظيما ، فقال له الخضر : ألم أقل إنك لن تستطيع صبرا علي ؟ ، فقال موسى : لا تؤاخذني بما نسيت ولا تكلفني أمرا عسيرا علي ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل أبصر الخضر غلاما يلعب مع غلمان مثله فقتله ، فقال له موسى : اقتتل نفسا زكية بغير ذنب اقترفته لقد جئت شيئا

منكرا ، فقال الخضر : ألم أقل لك إنك لن تستطيع صبرا على عملي وتزيد من تأنيبي ، قال موسى : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني فقد أعذرتني حيث خالفتك أكثر من مرة –وهذا كلام النادم– فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية وطلبوا منهم طعاما بأسلوب الضيافة فأبوا أن يعطوهما شيئا فوجدا فيها جدارا أثر السقوط فيه ظاهر فأقامه الخضر وعدله ، وقال له موسى منكرا : لو شئت لاتخذت عليه أجرا يكفي لطعامنا ، قال الخضر : هذا الانكار هو نهاية اجتماعنا ولذلك فإني سأتيك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ثم بين له الخضر ﷺ أسباب السلوك الذي لم يفهمه موسى واعترض على سلوكه ، قال الخضر :

- أما السفينة التي خرقتها فكانت لمساكين محتاجين يعملون في البحر للتجارة وصيد الأسماك وذلك مصدر رزقهم ، وكان لهم ملك جبار ظالم لهم ، وكان يأخذ لنفسه كل سفينة صالحة ويغتصبها من أهلها بدون الرجوع إلى الحق أو قانون فأردت أن أعيبها عيبا بسيطا حتى لا يستولى عليها المالك الظالم وتبقى لأصحابها المساكين وأنا ارتكبت أخف الضررين وأحسن الأمرين بالنسبة لهما .

- وأما الغلام الذي قتلته واعترضت على بأني قتلت نفسا ذكية طيبة بغير ذنب قارفته فأنت معذور في هذا ، ولكن أعلم أني قتلته لأن الله أطلعني على مستقبله وأنه إذا بلغ فسيقع في المنكرات ويؤذي الأفراد والجماعات وسيتعصب له أبواه وهما مؤمنان ويدفعان شر الناس عنه ويكذبانهم وهذا يسبب لهما الفسوق والعصيان ويجرهما على الكفر والطغيان ، وهما المؤمنان الصالحان ، ولكن حب الولد غريزة فخشينا أن يكلفهما عسرا ، وفي قتله رجاء أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وطهارة وأكثر رحمة وعطفا بأبويه ، ثم قال : وأنا لم أعمل سوءا وإنما ارتكبت أخف الضررين ففي قتله ضرر وفي بقائه ضرر أكبر ودرء المفسدة مقدم على جلب المنفعة .

- وأما الجدار الذي أقمته وتعبت فيه بلا سبب ظاهر فها هي ذي قصته : أنه لغلامين يتيمين في المدينة وتحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا ، وصلاح الآباء ينفع الأبناء إلى حد محدود ، فأراد ربك الكريم الذي تعهدك وأنت رضيع وقد ألقتك أمك في البحر أن يحفظ لهما الكنز حتى يكبرا ويتقلدا أمرهما فأمرني ربي بإقامة الجدار إذ أن الجدار لو سقط لضاع الكنز ، وكان ذلك رحمة من الله وعطفا على الغلامين وهو الرحيم الودود ، ثم قال له : وما فعلت هذا عن أمري واجتهادي ولكنه الوحي من الله وفي ذلك الخير للغلامين وذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا .

قوم سبأ : يتحدث القرآن الكريم في سورة سبأ عن قوم كانوا يسكنون في مساكن رائعة بسبأ باليمن فقد كانت لهم جنتان عن يمين وعن شمال وبهما كثير من أنواع الثمار ، وقال الله سبحانه وتعالى :﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (سبأ:١٥) ولكنهم أعرضوا فكانت النتيجة أن أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم سيل العرم .

هكذا كان موقف السبئيين الذين سكنوا في بلاد اليمن وأسسوا مدنا عظيمة ذات حصون وقلاع وقصور شامخة ، وقد أنعم الله عليهم بالخصب والمطر ، وقد هداهم تفكيرهم إلى إقامة سد عال على جبلين حجزوا به الماء في الوادي وصرفوه بحكمة هندسية فأخصبوا أراضيهم وزرعوا الزروع ونشئوا الحدائق الفيحاء ذات الثمار الكثيرة الرائعة ، لقد اتسعت لديهم النعمة وفاض عندهم الخير فأكلوا من رزق خالقهم ، وقيل لهم على ألسنة رسلهم : كلوا من رزق الله واشكروا ربكم على نعمه ، ولكنهم أعرضوا عن ذلك وغرتهم الحياة الدنيا

بزخارفها وغرهم بالله الغرور ، وهكذا كذبوا رسلهم وأعرضوا عن نصائحهم ، فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن أذاقهم الله عذاب الخزي وأراهم عاقبة كفرهم ليكونوا عبرة لغيرهم ، لقد أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم سيل العرم فهد السد وقوض البناء الذي كان يحجز المياه لهم لوقت الحاجة إليها ، وضاعت المياه في كهوف الصحراء بعد أن هدمت مساكنهم ، وعاد الوادي قطعة من الصحراء الجرداء لا نبات فيها سوى أشجار لا تثمر إلا كل مُر بشع لا غناء فيه ولا نفع ، ولم يبق إلا شيء من سدر قليل ، وبذلك بدل الله سبحانه وتعالى أفراحهم أتراحا ونعيمهم بؤسا وسرورهم حزنا وهربت العصافير والبلابل وخلفتها البوم والغرباء فوق القصور المتهدمة ، أما الذين كانوا يرفلون في ثياب النعيم والاستقرار فقد نزحوا من الديار وتفرقوا في البلاد حتى ضرب بهم المثل في قول الناس (تفرقوا أيدي سبأ) .

يقول الله تعالى في ذلك : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝ ﴾ (سبأ:١٥-١٧) ، ثم يقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا

كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (سبأ:١٨-٢١)

خاتم الأنبياء محمد رسول الله ﷺ : وهو خاتم الأنبياء والذي أرسله الله رحمة للعالمين وهو اليتيم الأمي وإمام الأنبياء جميعا . لقد أكمل الله سبحانه وتعالى به الدين وأتم على خلقه النعمة وأخرج الناس برسالته من الظلمات إلى النور وأنزل عليه القرآن الكريم الذي تكفل بحفظه ليحق به الحق ويبطل به الباطل وليبقى عبر الزمان والمكان أمل الباحثين عن العدل وعن والخير وعن السعادة وعن كرامة الإنسان .

ومن سمات المجتمع الجاهلي قبل البعثة إنكار البعث واليوم الآخر وعبادة الأصنام والتكاثر القبلي والعصبية الجاهلية والامتهان الشديد للأنثى وتضاعف التعامل بالربا والإكثار من شرب الخمر ولعب الميسر ، وقد أرسله الله سبحانه وتعالى ليكون آخر الأنبياء والمرسلين وليكون للناس جميعا على امتداد الزمان والمكان وجعل طاعة الرسول من طاعة الله تعالى .

وقد لقى ما لقى من قومه الذين كانوا يحبونه ويحترمونه قبل البعثة ويسمونه بالصادق الأمين ، وبعد البعثة تغير الموقف تماما وقالوا عنه إنه ساحر وشاعر وكاهن ومفتر ويأتي بأساطير الأولين ، وقد أوذي في مكة بأشد أنواع الإيذاء وحوصر في شعب أبي طالب ومن آمن معه ثلاث سنوات ، وحين ذهب إلى الطائف ليدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى لقي ما لقي من القوم وأوذي أشد أنواع الإيذاء ونادى ربه أن ينقذه مما هو فيه ، وقال : إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي ، وحين جاءه ملك الجبال وقال له إن أردت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ، فماذا قال ؟ ، لقد قال ﷺ : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى .

ثم هاجر إلى المدينة بعد أن عقد معاهدة مع أهل المدينة ، وفي المدينة بدأ صفحة جديدة في نشر الإسلام ومحاربة الكفار والانتصار عليهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنفال:٣٠) .

وفي المدينة بنى المسجد النبوي وآخى بين المهاجرين والأنصار وحدثت غزوة بدر في العام الثاني من الهجرة التي انتصر فيها المسلمون على الرغم من قلة عددهم ، وفي غزوة أحد أصيب المسلمون بجراح لأن من كان على ظهر الجبل خالفوا أمر رسول الله ﷺ بعدم ترك أماكنهم من على الجبل مهما شاهدوا من أعداء الله ، وحدث صلح الحديبية الذي كان مقدمة لفتح مكة المكرمة ، وبعد الفتح قال لكفار قريش : يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ ، قالوا : خيرا أخٌ كريم وابن أخٍ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وفي غزوة حنين أعجبت المسلمين كثرة عددهم وقال بعضهم لن نغلب اليوم من قلة فلم تغن عنهم الكثرة شيئا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثمَّ ولوا مدبرين ، ثم أنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ، وفازوا بعد ذلك .

وهكذا يتبين لنا سنة الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين ومع الكافرين ومع من خالف منهج الله تعالى من المؤمنين ، وفي ذلك دروس للناس جميعا على امتداد الزمان والمكان .

سنة التدرج :

إن من وظيفة المسلم الالتزام بمنهج الخالق سبحانه وتعالى إلى جانب الدعوة إلى الله تعالى بحيث تكون على بصيرة ، وبذلك ينتشر الإسلام ويسير الناس على الطريق المستقيم الذي يسعدهم في الدنيا والآخرة . ومن الملاحظ أن الإسلام

بضع وسبعون شعبة أعلاها (لا إله إلا الله) وأدناها (إماطة الأذى عن الطريق) ولا بد من البدء بالأهم فالمهم ولا بد من الأخذ بسنة التدرج في الدعوة وفي كل شئون الحياة كما فعل القرآن الكريم وهو يعرض تعاليمه على الناس .

والتدرج سنة قرآنية لها أبعاد تربوية لا بد من إدراكها حتى يمكن تبليغ الدعوة وإقامة الحضارة الإسلامية ، ومن ذلك تحريم الخمر الذي مر بمراحل ، فقال في بداية الأمر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء:٤٣) ، ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ﴾ (البقرة:٢١٩) ، وفي نهاية الأمر قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (المائدة:٩٠-٩١) .

ورسول الله ﷺ أمر بعبادة الله وحده لا شريك له مدة عشر سنوات ، ثم فرضت الصلاة بعد ذلك عن طريق العروج إلى السماء واستمرت خمس سنوات ، ثم فرض الصيام والزكاة ، وبعد ست سنوات فرض الحج ، وخلال ثلاثة وعشرين عاما قضاها رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله وفي تربية المجتمع الإسلامي على أسس إسلامية كاملة ، وبذلك أمكن علاج النفس الإنسانية لمن دخل في الإسلام وانحلت العقدة الكبرى (عقدة الشرك) فانحلت بعدها كل العقد ، واستطاع المسلمون أن يؤدوا وظيفتهم في هذه الحياة حتى انطبق عليهم قول الله تعالى : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ

ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝ ﴾ (آل عمران: ١١٠-١١١) .

وفي العصر الحديث أصبح من مشكلات الشباب الذين يعملون في الدعوة الإسلامية المساواة بين الفرض والواجب والسنة والمستحب وبين الكبيرة والصغيرة واللمم ، إلى جانب المساواة في الكبيرة والصغيرة واللمم . وأحيانا أخرى يتمسكون بمذهب من المذاهب ويرون أنه هو المذهب الوحيد الصحيح ويحاربون من لا يؤمن مثلهم بذلك ، ولو أنهم فهموا الأمر فهما إسلاميا على النظام الذي سار عليه رسول الله ﷺ لكان في ذلك الخير لهم والخير لأمتهم والخير لدعوتهم ، هداهم الله تعالى إلى الصراط المستقيم صراط الله الذي خلقنا ورزقنا ويحيينا ويميتنا ويحاسبنا على كل ما قدمناه في حياتنا الدنيوية .

سنة المدافعة :

سنة المدافعة مأخوذة من قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ (الحج: ٤٠) .

وهذه السنة الاجتماعية تحكمها التجمعات البشرية ويلمح الإنسان أثرها في كل زمان ومكان حيث يسلط الله سبحانه وتعالى بعض الناس على بعض ، وبذلك تكون هناك فرصة لنجاح المستضعفين في الأرض ونمو الخير وحماية أهله ، والحياة الإنسانية لا بد فيها من التدافع الذي ينشط أجهزة الإيمان وتتحرك فيه قواه الداخلية إذا كانت فاترة عندما يحدث التحدي ، ويكون هذا سبباً في إمداده بحياة جديدة ، وهذا من سنن الله الكونية التي يجب أن يخضع لها المؤمنون والكافرون ، فالكفر يحاول أن يفرض نفسه فتنشط قوى الإيمان بعد أن تتم قواه بضغط

الكافرين عليه ، وهذا التدافع الحضاري جزء من تمكين الخير بحيث تزداد صلابته في مواجهة الشر .

وسنة التدافع تعامل بها رسول الله ﷺ وتظهر واضحة في الفترة المدنية مع حركة السرايا والبعوث والغزوات التي خاضها رسول الله ﷺ ضد المشركين ، يقول الله تعالى في ذلك : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (البقرة:٢٥١) ، ويقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحج:٤٠) .

ومن الملاحظ أن آية سورة البقرة جاءت بعد ذكر بنماذج من الصراع بين الحق والباطل المتمثل في طالوت وجنوده المؤمنين وبين جالوت وأتباعه ، يقول الله تعالى في ذلك : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (البقرة:٢٥٠-٢٥١) . ومعنى ذلك أن دفع الفساد بهذا الأسلوب نعمة من نعم الله تعالى تعم الناس جميعا .

ونلاحظ أن آية سورة الحج تأتي بعد إعلان الله سبحانه وتعالى أنه يدافع عن أولياءه المؤمنين وبعد إذنه لهم بقتال عدوهم ، وتختم الآية الكريمة بتقرير الله تعالى بالقاعدة الأساسية في المدافعة ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

وتشريع القتال للمدافعة كان على مراحل :

المرحلة الأولى : الحظر وذلك عندما كان المسلمون في مكة وكانوا يطالبون بالإذن لهم بالقتال ، فكان يجيبهم رسول الله ﷺ بقوله : (إصبروا فإني لم أومر بالقتال) رواه مسلم .

المرحلة الثانية : الإذن من غير إيجاب ، قال الله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج:٣٩) .

المرحلة الثالثة : وجوب قتال من قاتل المسلمين ، قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠) .

المرحلة الرابعة : فرض قتال عموم الكفار على المسلمين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة:٣٦) .

وهذا التدرج في حكم القتال كان يقتضيه وضع الدولة الإسلامية وحالة الجيش الإسلامي الذي كان في مرحلة التكوين من حيث العدد والعدة والتدريب وما إلى ذلك ، فكان لا بد من مرور فترة من الوقت يكون التعرض فيها لأعداء الدعوة الإسلامية من كفار قريش الذين آذوا المسلمين ثلاثة عشر عاما بكل أنواع الإيذاء والتعذيب الذي وصل إلى حد القتل ، ولذلك اضطروهم للخروج من ديارهم وترك أموالهم وكل ما يملكون وذلك إلى أن يصلب عود الدولة الإسلامية ويشتد بأسها بحيث تستطيع الصمود أمام قوى

الكفر الظالمة في الجزيرة العربية حتى لو علمت قريش على تأليبها ضد المسلمين .

ومع مرور الإذن بالقتال بدأ رسول الله ﷺفي تدريب أصحابه على فنون القتال والحروب واشترك معهم في التمارين والمناورات والمعارك وهذا السعي في هذه الميادين يعد من أجل القربات إلى الله تعالى وأقدس العبادات التي يتقرب بها العبد إلى خالقه ، وقد قام رسول الله ﷺ بتطبيق قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال:٦٠) .

وكان منهجه ﷺ في إعداد المجاهد المسلم يعتمد على خطين متوازيين :

١- التدريب المعنوي .
٢- التدريب العملي .

وكان رسول الله ﷺ يهتم بالإعداد على حسب كل ظرف وحال ويحث على كل وسيلة يستطيعها المسلمون ، وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي) رواه مسلم .

ومن الأهداف التي شرع من أجلها التدافع بالجهاد في سبيل الله تعالى :

١- حماية حرية العقيدة .
٢- حماية الشعائر والعبادات .
٣- دفع الفساد في الأرض .
٤- الابتلاء والتربية والإصلاح .
٥- إرهاب الكفار وإذلالهم وتوهين كيدهم .
٦- كشف المنافقين وبيان أساليبهم وخطورتهم .
٧- إقامة حكم الله تعالى ونظام الله في الأرض .
٨- دفع عدوان الكافرين ورد كيدهم في نحورهم .

وبذلك يكون لمسلمون قد قاموا بدورهم الواضح في تحقيق سنة الله في المدافعة التي تؤدي وظيفتها في هذه الحياة على امتداد الزمان والمكان .

سنة التسخير :

سنة التسخير تبين مدى مظاهر القدرة الإلهية في تسخير القوى المختلفة لخدمة الإنسان ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (الأنعام:٩٥-٩٩) .

فالله سبحانه وتعالى سخر لنا الكون كله ويسر لنا استخدام كل جزء فيه ، وعلينا أن نعمر الكون بعملنا وعملنا ، وهذه الدراسة توجهنا إلى مزيد من التقدم والرقي وتزيد معرفتنا بقدرة الخالق سبحانه وتعالى ورسول الله ﷺ يشجعنا على طلب العلم فيقول ﷺ : (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة) رواه مسلم .

وتسخير الناس لعمارة الكون ينقسم إلى طبقات من السنن التسخيرية فهناك المهندس وهناك الطبيب وهناك العامل وهناك المزارع وهناك الصانع ، ولا بد من أن يسخر المهندس للعامل ...وهكذا ، ومن المستحيل أن تقوم شبكة العلاقات الاجتماعية بدون هذا التفاوت وهذه الفوارق الفردية ، يقول الله تعالى : ﴿ أَهُمْ

يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الزخرف:٣٢) .

والله سبحانه وتعالى سخر لنا البحر والأرض والشمس والقمر ولفت أنظارنا إلى أهمية اكتشاف فوائد التسخير الكونية التي توصلنا إلى التقدم العلمي ، وقد اكتشف الأوربيون قانون التسخير فأحسنوا تسخير الأرض والبحر والجو ، ولا بد من أن يأخذ الإيمان دوره الكامل في الهداية إلى هذه السنن الإلهية والتعامل والتفاعل الذي يحتويه الإيمان من استجابة السماء لتحقيق الشهود الحضاري وربط نتائج ذلك بقضية الإيمان ، وقد ربط القرآن الكريم كثيرا من النتائج المتحصلة من عمل هذه السنن بالتقوى ، فقط ربط بين التقوى وما يؤدي إليه من بصيرة في النظر إلى الأمور والحكم عليها بالحق والباطل والصواب والخطأ .

التسخير كيف يكون ؟ التغيير المطلوب هو التغيير الثقافي والتغيير النفسي الذي يؤدي إلى التغيير السياسي والتربية والدعوة والحكم ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ (الرعد:١١) ، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من اتباع اليهود والنصارى لأنهم لا يسيرون في الطريق الصحيح ، ومع ذلك فقد انبهرنا بتفوقهم المادي وقلدناهم في كل شيء حتى سرنا على نهجهم في الأخلاق البعيدة عن الأخلاق الإسلامية ، والعقاب الإلهي يظهر في نزع القيادة من أيدي المؤمنين ويضعها في أيدي العلمانيين لأنهم أخذوا بالأسباب وبالسنن الإلهية ونحن تركنا كل ذلك ، ومع ذلك فإن الآمال كبيرة في أن يعود المسلمون إلى القرآن الكريم ويتعاملون مع السنن الإلهية بوعي وفهم وإيمان .

وبذلك يعود للمسلمين مجدهم وعزتهم ويعودون إلى أداء وظيفتهم في عمارة الأرض طبقا لمنهج الخالق سبحانه وتعالى وبذلك يحققون قول الله سبحانه

وتعالى فيهم في قوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (آل عمران:١١٠-١١١) .

جمال صنع الله : كلما نظر الإنسان إلى ما في الكون فإنه يجد آيات الجمال التي خلقها الله تعالى وجعلها زينة للوجود ، وتظهر آيات الجمال في اختلاف الألوان ودقة توازنها في قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (فاطر:٢٧-٢٨) ، ويقول تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الرعد:٤) .

والجمال يظهر في النجوم وفي حرجة الجبال ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ (الملك:٥) ، ويقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (النمل:٨٨) .

وتنمية الإحساس بالجمال فيها شكر لله تعالى مبدع الجمال ، والإسلام يحب للمسلم أن يتزين الزينة المقبولة ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي

﴿ ... أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأعراف:٣٢-٣٣) ، وقبل ذلك يطلب من المسلمين أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد فيقول :

﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الأعراف:٣١) .

ورسول الله ﷺ يقول : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، قال رجل : يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس – رواه مسلم–

التأمل في صنع الله : الإسلام يحترم العقل الذي ميز الله تعالى به الإنسان على سائر المخلوقات ، ودعا أصحاب الألباب إلى أن يتأملوا ويتفكروا في ملكوت السماوات والأرض وأن يستمروا في تأملهم بوسائل المعرفة وهي السمع والبصر ، والتأمل في ملكوت الله يكتشف في كل مرة شيئا جديدا يزداد المتعلم به إيمانا بالخالق القدير .

كشف الأرض والسماء : لقد كشفت المجاهر الضخمة والأقمار الصناعية أسرار الكواكب ، كما كشف الإنسان المتأمل بأجهزته الحديثة نظام الأرض والجبال وتكوين الأمطار وأسباب نزولها وعلاقتها بإحياء الأرض وإنبات الزروع المختلفة ، يقول الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾

وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ (ق:٦-١١) .

الالتزام بمنهج الله تعالى :

إن الذي يحدد الحلال والحرام هو الله سبحانه وتعالى ، والقرآن الكريم يدعوا المؤمن إلى اتباع منهج الله تعالى ففي ذلك الخير كل الخير ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنفال:٢٤-٢٥)

فالإسلام دين السماحة واليسر والاعتدال ، يقول رسول الله ﷺ : (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) ، وقد طلب الله سبحانه وتعالى من رسوله الكريم أن يكون سمحا كريما في الدعوة إلى الله فقال : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل:١٢٥) ثم يقول بعد ذلك : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (النحل:١٢٦) ، ثم يقول لرسوله ﷺ ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (النحل:١٢٧-١٢٨) .

ولما جاء أحد الصحابة يشكو لرسول الله ﷺ وقد ضربه المشركون حتى سال الدم على وجهه بشره رسول الله ﷺ بزوال الخوف وحلول الأمن فقال : (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون) رواه مسلم ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بالصبر فقال : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأحقاف:٣٥) .

وفي سورة النور الآية ٥٥ يبين الله سبحانه وتعالى آثار عمل المؤمنين من الصالحات فيقول : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ، وفي سورة النحل الآية ٩٧ يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ويقول الله تعالى في سورة المجادلة الآية ١١ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ ، ويقول في سورة فصلت الآيات من ٣٠-٣٥ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ

قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

الإنفاق في سبيل الله تعالى :

الإنفاق في سبيل الله تعالى له ثواب عظيم عند الله سبحانه وتعالى ، ويظهر ذلك في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ (البقرة:٢٦١-٢٦٣) ، ويقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ (البقرة:٢٧٤) ، وقد بين الله سبحانه وتعالى صفات عباد الرحمن في آخر سورة الفرقان فقال : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ

يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ﴾ (الفرقان:٦٢-٧٧) .

العمل للآخرة :

ومن سنن الله تعالى أن يعمل المؤمن لآخرته كما يعمل لدنياه ، ومن الصفات المطلوبة للمؤمن الصدق ، والمؤمن لا يكون كذابا لأن الكذب يدعو إلى الفجور والفجور يدعو إلى النار ، ورسول الله ﷺ كان يسمى قبل البعثة بالصادق الأمين ، وهو يقول في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم : (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يدعوا إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)

التوازن :

ومن سنن الإسلام التوازن فالمجتمع الإسلامي هو مجتمع التوازن والتكامل بحيث يتوازن الإنسان مع نفسه ومع مجتمعه وبذلك يستطيع أن يؤدي وظيفته في الحياة .

– والتوازن نوعان : نوع خِلْقِي وهذا من إبداع الله سبحانه وتعالى ويتمثل في الأجهزة الداخلية للجسم كالكبد والكلى والقلب، والأجهزة الظاهرة كالحواس من عينين وأذنين ويدين ورجلين، قال الله تعالى:﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ ﴾ (البلد:٨-١٠) ، إلى جانب التوازن والتكامل بين الأجهزة الداخلية والخارجية فلا يستغنى أحدهما عن الآخر .

ونوع خُلُقِي وهو توازن يتم بجهد الإنسان وفكره وعمله بعد أن علمه الله ذلك ، فقد عَّلم الإنسان ما لم يعلم ، وهذا التوازن يظهر في :

١- توازن الطاقات : ويظهر ذلك في قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء :(إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه) ، فأتى أبو الدرداء إلى رسول الله ﷺ وذكر له ذلك ، فقال ﷺ : صدق سلمان . وعلى الإنسان أن يستخدم طاقاته في الكشف عن كنوز الأرض وأسرار الكون عملا بقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ (يونس:١٠١) ولأهمية الطاقة العقلية جاءت كلمة (يعقلون) في القرآن الكريم في٢٢ آية ، وكلمة (تعقلون) في ٢٤ آية .

٢- التوازن في العبادات: والعبادة تشمل كل شيء يعمله الإنسان في الحياة ما دام يبتغي به وجه الله تعالى ويظهر ذلك في قوله تعالى : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ

وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (البقرة:١٧٧)

وبهذا يتحقق التوازن في كل شيء فيستطيع المسلم أن يؤدي وظيفته في هذه الحياة فيسعد في الدنيا والآخرة ولكنه إذا فقد هذا التوازن فإنه قد يخسر الدنيا والآخرة وقد بين ذلك رسول الله ﷺ في بعض أحاديثه ، ومنها قوله ﷺ : (يوشكُ أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها ، قالوا : أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ ، قال : لا بل أنتم يومئذ كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ ، قال : حب الدنيا وكراهية الموت) رواه البخاري ، ويقول رسول الله ﷺ : (كيف بكم إذا طغى نساؤكم وفجر شبابكم وتركتم جهادكم ؟، قالوا : وإن ذلك كائن يا رسول الله ؟، قال : نعم وأشد منه سيكون – كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ ، قال : نعم وأشد منه سيكون – كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا ؟، قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ ، قال : نعم وأشد منه سيكون – كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ ، قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ قال : نعم وأشد منه سيكون ، يقول الله عز وجل : لأفتننهم فتنة تدع الحليم فيهم حيرانا) البخاري .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : يا معشر المهاجرين خمس خصال إن ابتليتم بهن كنَّ وبالا عليكم وأعوذ بالله أن تدركوهن :

١- لم تظهر الفاحشة في قوم قط يعلنوا بها إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم .

٢- ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بشدة القحط وجور السلطان .

٣- وما منعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا .

٤- وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله ﷺ إلا سلط عليهم من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم .

٥- وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم . رواه ابن ماجة والبزار والبيهقي .

نصر الله تعالى :

من سنن الله سبحانه وتعالى نصر الله سبحانه وتعالى لمن ينصره ، يقول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ ﴾ (محمد:٧) ، وقد انتصر المسلمون في **غزوة بدر** مع قلة عددهم وعدتهم أمام كفار قريش على الرغم كثرة عددهم وعدتهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ (آل عمران:١٢٣) ، ويقول في سورة الأنفال الآية ١٢٦ : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ (الأنفال:١٧) ، ومن الملاحظ أن المسلمون انتصروا على أعدائهم على الرغم من قلة العدد والعدة ومن ذلك تلك المعارك الرمضانية الفاصلة في شهر رمضان على امتداد الزمان والمكان ومنها غزوة بدر .

فتح مكة في العام الثامن من الهجرة وحين دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحا لها ، قال : يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، ولكنه اتجه إلى الأصنام المحيطة بالبيت الحرام فحطمها وكان عددها ٣٦٠ صنما وبذلك آثار الجاهلية .

موقعة القادسية : التي كانت في رمضان من عام ٢٥هـ وكانت بين المسلمين وبين الفرس وقال مندوب قائد الجيش سعد بن أبي وقاص لرستم قائد الفرس : إن الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة الله إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام وقد انتصر المسلمون في المعركة وأصاب الفرس الانهيار وركبهم الذل والهوان ومن آثار هذه المعركة انفتاح أبواب العراق وفارس كلها وبذلك كسرت شوكة المجوس كسرة لم تقم بعدها أبدا ومنها :

فتح الأندلس في رمضان سنة ٩٢هـ وحدثت المعركة بين طارق بن زياد قائد جيش المسلمين وبين سكان الأندلس ، وانتصر المسلمون انتصارا رائعا ، وغير فتح المسلمين حال أهل الأندلس ، وأنقذ المسلمون اليهود من الذل والهوان في حكم القوط ، وسياسة تسامح المسلمين كان لها الأثر الواضح في تسهيل استلائهم على هذه البلاد وعلى دخولهم في الإسلام عن قناعة تامة ، وبقى الإسلام في الأندلس ثمانية قرون وحين نسى المسلمون أنفسهم ونسوا دينهم وانتشر فيهم الترف تم القضاء عليهم وعادت الأندلس إلى النصرانية مرة أخرى .

موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ وكانت بين الإمبراطورية الرومانية التي أرادت القضاء على الدولة الإسلامية وكان قائد الجيش أرمانوس الذي خرج في ثلاثمائة ألف منهم ثلاثون ألف فارس وكان جيش المسلمين أقل من نصف هذا الجيش ومع ذلك فقد انتصر المسلمون انتصارا رائعا ، وأسر أرمانوس ثم عفا عنه إلب أرسلان قائد الجيش الإسلامي وأكرمه ونصب له سريرا وألبسه قلنسوة

وقباء وقال له : قد عفوت عنك وأنا أسير بك إلى بلادك وأرد عليك مُلكك ، فقبَّل الأرض بين يديه .

موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ وكانت في الأندلس بين المرابطين وبين نصارى الأندلس بقيادة ألفونس ، وقد أكدت هذه المعركة أن المسلمين ينهزمون حينما يتركون دينهم ويتبعون أهواءهم ويخاصم بعضهم بعضا من أجل المال أو الجاه ، وينتصرون حينما يتجهون إلى خالقهم وتتوحد كلمتهم ويعملون على نصر دينهم .

موقعة حطين رمضان ٥٨٣هـ وكانت بين قائد جيش المسلمين صلاح الدين الأيوبي وبين الصليبيين في الشام ، وكان الهدف هو استرداد بيت المقدس وإسقاط المملكة الصليبية ، ومما حدث أن صلاح الدين قد فتح أكثر المدن في أيام الجمع ، وبعد النصر عفا صلاح الدين عن الصليبيين جميعا بل أنه أكرمهم إكراما لم يحدث مثله في تاريخ الصليبيين حينما فتحوا بيت المقدس ٩٩هـ قاموا بذبح سبعين ألف مسلم ، وهذا ما يحدث الآن من إسرائيل بمساعدة العالم الغربي كله .

موقعة عين جالوت ٦٥٨هـ وكانت بين التتار بقيادة ملكهم جنكيز خان وبين المسلمين بقيادة الملك المظفر قطز ، وكان قطز يهتف أمام جيشه وإسلاماه اللهم انصر عبدك قطز على التتار ، وقد تم نصر الله تعالى له على التتار .

معركة العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ وكانت بين إسرائيل وبين المصريين ، وقد استطاع المصريون تحطيم خط بارليف الذي ظن اليهود أنه لن يحطم إلا بالقنابل الذرية وتم تدمير كتائب المدرعات والصواريخ المضادة للدبابات والقنابل الحارقة ، وخسر الإسرائيليون الكثير من الطائرات والدبابات والجنود ، ووقع في الأسر عدد من القوات الجوية ، وكانت خسائر مصر قليلة ، وقالت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل في كتابها (حياتي) : إنني أكتب عن هذه المعركة ككارثة ساحقة وكابوس ضخم ، لقد عشت هذه الأيام وستظل باقية طوال العمر ، وقد أثبتت هذه المعركة قدرة المقاتل المسلم على الصبر على

أحدث الأسلحة الحديثة والمتطورة والسيطرة عليها بكل كفاءة إلى جانب التفوق في كل فنون القتال والتخطيط والتنفيذ ، والله أكبر سلاح أصبح يدرس في الكليات العسكرية في العالم الغربي .

ومن الملاحظ أن المسلم الصائم قبل أن ينطلق إلى الجهاد في سبيل الله فإنه يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر مع نفسه الأمارة بالسوء ومع نزغات الشيطان وهو محتفظ بعبودية الخالق سبحانه وتعالى وتنفيذ أوامره والسير على منهاج نبيه ﷺ في عمارة الأرض طبقا لمنهج الخالق سبحانه وتعالى ، وبذلك يحس بالأمن والسعادة في الدنيا والآخرة .

الخاتمة

إن الحال الذي أصبح عليه المسلمون في العصر الحدث يحتاج إلى إدراك سنن الله تعالى في الأنفس والآفاق التي تحكم شروط النهوض والسقوط الحضاري .
نعم ... إن المسلمون مقتنعون بذلك ، ولكن هذا الاقتناع لم يخرج إلى مرحلة التطبيق والممارسة ولم ينتقل إلى مراحل تغييرية .

والمشكلة تتركز اليوم في إدراك هذه السنن وحسن تسخيرها والتعامل معها وكيف يمكن للأمة في واقعها الحالي أن تنتقل من موقع المعرفة والفكر إلى موقع الفعل ؟ ، إن هذه المشكلة لم تحفر بعد في واقع الأمة المجرى المطلوب لسيرورتها .
قد تكون المشكلة اليوم في التعامل مع القرآن الكريم كالعاصي من البشر الذي يسمع آيات تدعو إلى التوبة فلا يدرك أبعاد معصيته وضرورة الالتفات إلى التوبة المودعة في الآيات ، وإنما يلتفت إلى موسيقى القراءة ونغم التالي فيقول (الله الله) للنغمة التي يسمعها فلا يتدبر ولا يفكر قط في أن صنع شيء للانتقال من معصيته إلى التوبة المطلوبة منه ... هكذا حال أمتنا اليوم .

وقد أصبح هذا التعامل مع القرآن هو المناخ الثقافي السائد الذي نورثه لأجيالنا . نعم ... لا بد من التدبر فإذا تدبرنا الآيات نقلناها من السماع إلى حقول المدارسة والممارسة ثم إلى ميادين السلوك لنعرف كيف تعمل الآيات في ما نعاني منه وفي ما نواجه ، فإذا قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝﴾
(يونس:٨١-٨٢) ، فإننا يجب أن نجيء بهذه الآية وننظر إلى أعمالنا وهي قاصرة هل يكملها الله ؟ ، لا لن يكملها لأن الله سبحانه وتعالى لا يصلح عمل المفسدين ، إذن لا بد من إدراك الخلل الذي أصاب العمل فجعله لا ينتج ، لا بد من استدراكه حتى يؤذن الله بالصلاح لذلك لا بد من تحري الصواب في العمل إلى جانب الإخلاص .

تصويب مناهج الفكر :

لو تأملنا ملامح الظاهرة الثقافية التي عليها المسلمون اليوم لوجدنا أن هناك خللا في تلقي القرآن الكريم وخللا في التعامل مع القرآن ، وهذا الخلل يعود إلى طرق التدريس ومناهج التربية والتعليم ويشارك في هذا الخلل مؤسسات كثيرة عاملة في بناء الشخصية .

نعم ... لقد كان إهمال السنن من أهم أسباب التخلف في مجال الدنيا وإعمارها والتواكل في مجال الدين والسلوك ، ولو أعملنا سنن الله تعالى لاستطعنا أن نحدد مواطن الخلل في نظامنا التعليمي وفي التعامل مع القرآن الكريم منبع ثقافتنا الأصلي الذي أحدث هذه الظواهر ، فتغيير التعامل مع القرآن يجب أن يبدأ في إصلاح الخلل في مناهج التلقي ووسائط التوصيل وإعادة بناء العقل على منهج فكري واضح نستطيع به تغيير التعامل مع القرآن الكريم ، والقرآن الكريم نفسه يقول : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم:٤١) فكان الفساد ناشئ عما كسبته الأيدي ولن يتلاشى الفساد إلا إذا اختفى ما تكسبه الأيدي من إثم .

القرآن شفاء للمؤمنين :

كيف نفهم ذلك هل بقراءته فقط أو الاستماع إليه فقط ؟ ، لن يكون القرآن الكريم شفاء للمؤمنين إلا بالتعامل بالسنن الإلهية في الأنفس والآفاق.

لقد كان المسلمون حديثي عهد بالقرآن والسنة واشتبكوا مع الرومان في معركة (ذات الصواري) وما كان للعرب صلة بمعارك البحر ولكنهم علموا أنهم ما يكسبون المعركة ضد الرومان والبحر الوسيط إلا إذا صنعوا السفن واشتبكوا مع العدو ، فصنعوا السفن واشتبكوا مع العدو . وكانت البركة في أن يحولوا

آيات الجهاد إلى جهاد وآيات الإعداد إلى إعداد ، فأعدوا ما كان غريبا على بيئتهم لأنهم كانوا ركاب إبل في الصحراء فصنعوا السفن في البحر لكي ينتصروا .

ولذلك يرى فضيلة الشيخ الغزالي أن الإصابة والخلل في المؤسسات الموكول إليها عملية الإشراف على التربية والتعليم من مناهج وكتب ومدرسين ووسائل معينة ، ثم يهتف : إنها لم تستطع أن تكون أداة توصيل صحيحة بين الجيل وبين القرآن الكريم ومواريثه الثقافية فصار هناك توارث للتخلف والمرض ، ويقول : إن الذين يقرأون القرآن قراءة ذات فهم موضوعي محدود للنص - وليس فهما موضوعيا - دون أن يعلموا هذا النص فيما أنزل من أجله وفيما أنزل على سيدنا محمد ﷺ فكأنهم يرقون الدواء على الأرض ولا يحسنون علاج المرضى بتعاطيه .

إن المسلمين في هذه الأيام يفتتحون الحفل الذي يقام في إنشاء مدرسة عسكرية بالقرآن ويكتفون بذلك ، لكن ينبغي أن يكون القرآن نفسه هو الذي أنشأ هذه المدرسة وأودع روح القتال فيها وفي أبنائها ، وبدل من أن نكتب ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (الأنفال:٦٠) في الجدار لافتة يكون البناء التربوي والإعداد العملي والتخطيط الاقتصادي والعسكري مبنيا على أن الأدوات تجمع والأجهزة تحشد ورباط الخيل الجديدة - الدبابات وغيرها- تعد .. كل شيء يعد .. هذا هو معنى الجهاد وفهم الجهاد من القرآن .

خلود القرآن ماذا يعني ؟

سؤال يجيب عليه شيخنا بأن خلود القرآن الكريم يعني أن القرآن قادر على الاستجابة لكل الحالات وفي كل الظروف فكما أن الآيات خالدة فإن المشكلات أيضا خالدة وبذلك يكون هناك توازن بين المشكلات وبين الآيات وتبقى المشكلات خالدة حتى تبقى الحاجة إلى القرآن قائمة فيما تتقلب به البشرية من كفر ونفاق وهبوط وسقوط وصعود وما إلى ذلك .

والبشرية لن تخلو على امتداد الزمان من نفس الحالات البشرية التي رأيناها خلال حياة النبي ﷺ ، فخلال ربع قرن أمكن تقديم نماذج لما يصنعه الخصام واللدد وما يصنعه الحب والعاطفة الإنسانية وهي تستقر أو وهي تهاجر ...

ومن الواضح أن الإسلام هو إطلاق للعقل -لا حجر عليه- واعمال له لا تعطيل لوظائفه ، فقد جاء في القرآن الكريم دعوة إلى قراءة الكون وتأمل أسراره وسننه وحث الفرد على التأمل داخل نفسه وخارجها للوصول إلى تعاون أفضل مع بني جنسه وفهم أتم لوحدات الكون وطبيعة المادة ، ولكن الإصابات الكثيرة التي حدثت للمجتمع الإسلامي أحدثت في تقافتنا نموا غير طبيعي من تضخم للمرويات الواهية وتضخم الأحكام الفرعية في الفقه والذبول في علوم الكون والحياة بموت المكتشفين الأوائل ...

وهذا كله كان سبباً في انحسار واضح في الجوانب الأخرى من الشمولية القرآنية وتكونت نظرة دونية إلى من يشغل نفسه بمجال من المعرفة في غير الوجهات السابقة وانعكست هذه النظرة إلى واقع ممارسة وليس من المصادفة أن رجلا مثل سيف الدولة الذي يهب الآلاف من الدنانير لقصيدة تقال ، يرى أن أربعة دراهم في اليوم كافية لمطالب الفارابي ، وأن يعاني الكندي ظروفا ألجأته لاعتزال الناس ، وأن يقضي الحسن بن الهيثم بقية عمره كاسبا قوته من نسخ الكتب .

ولعلنا نجد في ذلك المناخ التفسير لحقيقة كئيبة وهي : (أن ما وجه من جهد للمجالات الأخرى التي لا تدخل في صناعة الكلمة مثل السياسة والاقتصاد والاجتماع لا تتناسب مع طبيعة ما تقتضيه هذه المجالات وأن نرى العلوم التجريبية تكاد تبتدئ وتنتهي بالأوائل من واضعيها وأن يكون كتاب أبو يوسف (في الخراج) أهم ما وضع في بابه ، لقد ابتدأت الكمياء وانتهت أو كادت بجابر ، ولم يعرف عمل يوازي عطاء الخوارزمي في الجبر ، ولم يتقدم علم البصريات ... الخ .

وهكذا ندرك شيئا مهما عاق الحضارة الإسلامية عن التقدم ولا زلنا نعاني من ذلك في تأخرنا عن ركب الحضارة بعد أن كنا قائدين للحضارة التي أعطت للبشرية كلها ما لم تستطع أية حضارة أن تعطيها ذلك لأنها من الله سبحانه وتعالى خالق البشر وهو أدرى بما يصلح لهم وما يصلحهم .

السنن الإلهية :

السنن الإلهية في الأنفس والآفاق هي القانون المطرد وقد تحدث القرآن الكريم عن السنن التي تسير الحياة والأحياء وهي قوانين تحكم الحركة التاريخية والاجتماعية والنفسية سقوط سنن سقوط الأمم ونهوضها وغالبا ما يجيء ذلك في أعقاب النص القرآني ... وأكد أن هذه السنن جارية على الناس جميعا وأن اكتشافها والتعامل معها أمر لا بد منه للشهود الحضاري في عمارة الأرض والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني الشهادة والقيادة للناس لقوله تعالى : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣) واكتشاف السنن هو الذي مكن العالم الغربي من التقدم والتحكم ، وغفلة المسلمين عنها كانت سبب الانحطاط والسقوط والتخلف وأصبحوا مُسَخَّرِين بدل من أن يكونوا مُسَخِّرِين .

منهج العودة إلى القرآن :

يرى فضيلة الشيخ الغزالي أن تدوين منهج العودة إلى القرآن الكريم يقتضي نزع فكرة القدسية عن مفاهيم البشر كمرحلة أولى وأن هذه المفاهيم ليست دينا وليست شيئا ملزما وإنما هو فهم من خلال ظروف معينة لتنزيل النص القرآني في عصر معين على حالة معينة ، فقد يتغير العصر وقد يتغير الفهم وقد يدرك فهم آخر تهيء له الكشوف العلمية .

فإذا استطعنا نحن الوصول إلى مرحلة القناعة بأن هذا التراث ليس مقدسا إنما هو فهم بشري قابل للخطأ والصواب وأنه يستعان به أو هو وسيلة للوصول إلى النبع الأصلي وأنه لا يغني عن النبع الأصلي بحال من الأحوال أو عصر من

العصور ونبقى مشدودين دائما إلى القرآن مشدودين إلى محاوره كلها وسننه وقوانينه المطردة إي إلى الوصول إلى مرحلة الفكر القرآني أو الفلسفة القرآنية .

وبذلك يمكن أن نكون قد وضعنا الخطوة المطلوبة اليوم لمنهج العودة إلى القرآن وعلينا أن نلاحظ أنه لا يمكن الاغتراف من القرآن مباشرة دون امتلاك الوسائل التي تمكن من الاغتراف من القرآن مباشرة وبخاصة في القضايا الفقهية التي لم تدع الأئمة فيها زيادة لمستزيد .

نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع :

ويتساءل مؤلفنا الفاضل كيف يمكن تدوين العلوم الاجتماعية من خلال القرآن الذي يعتبر مصدر هذه العلوم بالدرجة الأولى وكأني أرى أن القرآن هو أكثر اهتماما بالعلوم الاجتماعية التي تصنع الإنسان وتعيد تشكيله منه بالعلوم التجريبية والمجالات الأخرى وأن استخدام السنن النفسية والسنن الكونية معا لإثبات الحقائق التي لا بد منها لبناء الإنسان وعمارة الأرض بل لعله جعل النظر في الآيات الكونية وسيلة للوصول إلى بناء الإنسان المؤمن .

لقد بدأ الآن توجه إلى تكوين علم اجتماع إسلامي ، وعلم الاجتماع في حقيقته العلم الذي يحث في الأسرة والأمة وما يطرأ عليها من تغيرات والقوانين التي تنتظمها وغير ذلك ، وهذا كله أصوله في القرآن الكريم وله تطبيقاته في التاريخ الإسلامي ، لكن لم تجمع قواعده تحت عنوان معين مثل علم النحو وعلم الصرف ... الخ ، وللأسف ظل هذا غير محدد في الدراسات الفقهية والتفسيرية والحديثة ومطلوب منا رحلة مع التراث الإسلامي لاستخلاص أصول هذه العلوم المنبثة هنا وهناك في إطار الرؤية القرآنية ويمكن أن نقول أن الأستاذ محمد المبارك وضع الخطوات الأولى في هذا الاتجاه .

ثم إن بعض العلماء قد وضع ورقة للسير في هذا الاتجاه ولكن المشكلة اليوم تكمن في توقف العقل المسلم وهذا الأمر هام ولا بد وأن تقوم به جماعات إسلامية الآن ويجب أن تختار الجامعات رجالا لهم خبرة بالعلوم الأجنبية إلى

جانب الخبرات القرآنية والدراسات المعمقة وبذلك يسيرون في الطريق المطلوب الذي ينقذ الأمة .

السقوط الحضاري :

لقد ذُكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم ١٢٠ مرة وقصة موسى حتى لا يتحول الخلفاء إلى فراعنة وحتى تعرف الشعوب أيضا أن عبادة غير الله جريمة وأن الرضا بالذل تكون عقباه الهوان في الدنيا والآخرة ، وقد تحدث القرآن الكريم كثيرا عن أن الأتباع يلحقون متبوعيهم في جهنم لكي يفطم النفوس عن هذه التبعية الذليلة ، قال الله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (سبأ:٣٢) هؤلاء الجبابرة سيتبرأون من أتباعهم يوم القيامة وعندئذ يقول الأتباع المقهورين الأذلة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ (البقرة:١٦٧) .

ولو أننا تأملنا في القصص القرآني واستفدنا منه أحكاما كما نستمد الأحكام من آيات الوضوء أو الغسل واستفادة الأحكام من الواقع العملي في تاريخ البشرية أهم وأجدر لأنها عامة ولأنها تتصل بسنن حضارية لا تتخلف ، كانت الأمة الإسلامية لا تقبل دنية أبدا .

الكلمة الأخيرة :

لقد اتفق المؤرخون على أن الانطلاقات السياسية أو العسكرية الكبرى لا بد وأن يكون وراءها فلسفة (أيدلوجية) معنوية أو أدبية أو تشريعية أو اجتماعية أو غيرها .

وما يكون هناك من انطلاقات عسكرية محرومة من هذه الفلسفة فإنها تشبه أن تكون غابة لصوص وتنتهي ، وهكذا يوضح لنا شيخنا الطريق السليم الذي

ينقذنا وهو أنه لا بد من العودة إلى الدين الإسلامي إلى القواعد التي انطلقنا منها قديما ، ولا بد من أن يكون القرآن الكريم محور حياتنا .

إن الأمة لا بد لها أن تنزع كلها إلى الدستور الرصين والأركان الكبرى في هذا الدستور لا بد وأن تبنى وكذلك تفعل الأمم الأخرى ، ويجب ألا يغيب عن أبصارنا أبدا الهدف الأساسي الذي لا بد منه وهو كتابنا بحيث يكون محركا للحضارات كما كان الأمر قبل ذلك وإلا فلن نلوم إلا أنفسنا .

علي القاضي

كتب صدرت للمؤلف

١- أضواء على التربية في الإسلام .
٢- وظيفة المرأة في المجتمع الإنساني .
٣- جامعات يوسف .
٤- الحدود في الإسلام هدية الله إلى البشرية .
٥- دور المرأة ومكانتها في الحضارات المختلفة.
٦- ماذا تعرف عن بديع الزمان النورسي .
٧- علم الإنسان في القرآن الكريم .
٨- الحضارة الغربية المترفة تسير إلى الهاوية .
٩- الإسلام يدلل المرأة .
١٠- معارك رمضانية فاصلة في تاريخ الإسلام.
١١- الفن بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى.
١٢- أضواء على الغزو الثقافي للمجتمعات الإسلامية.
١٣- مفاهيم إسلامية .
١٤- أوسمة إلهية لخير البرية .
١٥- لماذا أسلمنا ؟ .
١٦- أضواء على شخصيات إسلامية متميزة.
١٧- أضواء على افتراءات أعداء الإسلام على التاريخ الإسلامي .
١٨- أضواء على الحضارة الإسلامية .
١٩- الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية شاملة.
٢٠- خمسة أسئلة عن الإسلام في العصر الحديث والإجابة عليها.
٢١- رجاء جارودي الفيلسوف الماركسي الذي أسلم.
٢٢- المنهاج الإسلامي لحل المشكلة التربوية في العالم الإسلامي .
٢٣- الحكمة في التشريعات الإسلامية .
٢٤- أوسمة نبوية .
٢٥- حضارة التوحيد .
٢٦- ماذا تعرف عن جماعة التبليغ والدعوة .
٢٧- ماذا تعرف عن المدينة الأندلسية قرطبة .
٢٨- الانفجار السكاني بين الحقيقة والخيال .
٢٩- فن الذوق (الإتكيت).
٣٠- السنن الإلهية في الأنفس والآفاق .

كتب تحت الطبع

١- أضواء على كتب إسلامية حديثة .
٢- أضواء على كتب تربوية حديثة متميزة .
٣- أفكار في التربية الإسلامية .
٤- المدينة المنورة عند الهجرة .
٥- مكة المكرمة عند الهجرة .
٦- التلوث بأنواعه وأثره في تدمير المجتمعات .
٧- أركان الإسلام ودورها في إعداد الإنسان الصالح .
٨- دور الشباب في الدعوة إلى الله .
٩- الإسلام في عيون الآخرين .
١٠- النظم الإسلامية ودورها في سعادة الأمم .